

الابتلاء

عناصر الموضوع

١٣٦	مفهوم الابتلاء
١٣٧	الابتلاء في الاستعمال القرآني
١٣٨	الألفاظ ذات الصلة
١٤٠	الفرق بين الابتلاء والعقوبة
١٤٣	الابتلاء سنة إلهية
١٤٥	أنواع الابتلاء
١٥٠	الابتلاء في الدعوة إلى الله
١٥٣	الحكمة من الابتلاء
١٥٦	المعينات على اجتياز الابتلاء

مفهوم الابتلاء

أولاً: المعنى اللغوي:

«الباء واللام والواو والياء، أصلان: أحدهما: إخالق الشيء، والثاني: نوع من الاختبار، ويحمل عليه الإخبار أيضًا، قال ابن الأعرابي: يقال ابتليته فأبْلَانِي، أي: استخبرته فأخبرني»^(١).

«وأبلى في الحرب بلاء حسنًا إذا أظهر بأسه حتى بلاء الناس وخبروه»^(٢).

قال ابن منظور: «بلوت الرجل بلوًا وبلاءً، وابتليته: اختبرته، وبلاه يبلوه بلوًا، إذا جربه واختبره، وابتلاه الله: امتحنه... وبلي بالشيء بلاءً وابتلي، والبلاء يكون في الخير والشر، يقال: ابتليته بلاءً حسنًا وبلاءً سيئًا»^(٣).

فالبلاء والابتلاء، والفتنة، والامتحان، والاختبار خمسة ألفاظ مختلفة تشترك في الدلالة على معنى واحد هو الاختبار.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، ولذا قال الشوكاني: الابتلاء: الامتحان والاختبار، أي: ابتلاه بما أمره به»^(٤).

وقال الزحيلي: «الابتلاء هو الاختبار، أي: معرفة حال المختبر بتكليفه بأمر يشق عليه فعلها أو تركها؛ ليجازيه عليها»^(٥).

وقال الكفوي: «الابتلاء: التكليف في الأمر الشاق، ويكون في الخير والشر معًا، ولكنهم عادة ما يقولون: في الخير أبليته إبلاء وفي الشر: بلوته بلاءً»^(٦).

وقال المناوي: «البلاء كالبلية: الامتحان، وسمي الغم بلاء؛ لأنه يبلي الجسد»^(٧).

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١ / ٢٩٢.

(٢) أساس البلاغة، الزمخشري ١ / ٧٧.

(٣) لسان العرب ١٤ / ٨٣.

(٤) فتح القدير ١ / ١٥٠.

(٥) التفسير المنير ١ / ٣٠٢.

(٦) الكليات ١ / ٢٩.

(٧) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٨٢.

الابتلاء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بلو) في القرآن (٣٦) مرة، يخص موضوع البحث منها (٣٤) مرة^(١).
والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٧	﴿إِنَّا بَلَوْتُمُوهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَهْمَبَ الْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧]
الفعل المضارع	٢٠	﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥]
فعل الأمر	١	﴿وَابْتَلُوا لِيَنظُرَ﴾ [النساء: ٦]
اسم	٦	﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦]
اسم فاعل	٢	﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٠]

ولم يختلف معنى (الابتلاء) في القرآن الكريم عن معناه اللغوي الذي يدور حول الاختبار والامتحان.

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص ١٣٥-١٣٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الفتنه:

الفتنة لغةً:

قال ابن فارس: «الفاء والتاء والنون أصل صحيح يدل على ابتلاء واختبار. من ذلك الفتنة. يقال: فتنت أفتن فتناً. وفتنت الذهب بالنار، إذا امتحنته»^(١).

الفتنة اصطلاحاً:

«أصل الفتنة الامتحان والاختبار، واستعملت في الشرع في اختبار كشف ما يكره»^(٢).

الصلة بين الابتلاء والفتنة:

مما سبق يتضح لنا الصلة بين الابتلاء والفتنة؛ فالكلمتان تكادان أن تكونا مترادفتين، فأصلهما اللغوي واحد وهو الامتحان والاختبار، إلا أن الفتنة أعم من الابتلاء.

٢ المصيبة:

المصيبة لغةً:

تعني النائية وكل أمر مكروه^(٣)، وجاء في لسان العرب أنها تعني الشدة^(٤).

المصيبة اصطلاحاً:

هي البلية وكل أمر مكروه ينزل بالإنسان^(٥).

الصلة بين الابتلاء والمصيبة:

المصيبة هي أداة من أدوات الابتلاء.

٣ الاختبار:

الاختبار لغةً:

قال الجوهري: «خبره- بالكسر-: إذا بلوته واختبرته»^(٦)، «وقد اختبره وتخبره. يقال: من

(١) مقاييس اللغة ٤ / ٤٧٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ١١ / ١٧٦.

(٣) انظر: المفردات، الأصفهاني ص ٣٧٧.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١ / ٥٣٤.

(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١ / ٥٣٤، تاج العروس، الزبيدي ٣ / ٢١٥.

(٦) الصحاح ٢ / ٦٤٢.

أين خبرت هذا الأمر؟ أي: من أين علمت؟^(١).

الاختبار اصطلاحًا:

ويمكن تعريف الاختبار بأنه: أي محك أو عملية يمكن استخدامها بهدف تحديد حقائق معينة أو تحديد معايير الصواب أو الدقة أو الصحة سواء في قضية معروضة للدراسة أو المناقشة أو لفرض معلق لم يتم التثبت منه بعد.

الصلة بين الابتلاء والاختبار:

الابتلاء يقتضي استخراج ما عند المبتلى من الطاعة والمعصية والاختبار وقوع الخبر بحاله في ذلك^(٢)، والاختبار أصل من أصول الابتلاء ومحك من محكاته، فالابتلاء والاختبار قد يكونان بالخير وقد يكونان في الشر.

٤ التمهيص:

التمهيص لغةً:

الميم والحاء والصاد: أصل واحد صحيح يدل على تخليص شيء وتنقيته. ومحصه تمهيصًا: خلصه من كل عيب، محص الله العبد من الذنب: طهره منه ونقاه، ومحصت الذهب بالنار: خلصته من الشوب^(٣)، والتمهيص: الابتلاء والاختبار^(٤).

التمهيص اصطلاحًا:

قال مجاهد: «هو بمعنى: الابتلاء، وحقيقة معنى التمهيص: التطهير من الذنوب، تقول العرب: محص عنا ذنوبنا، أي: طهرنا من الذنوب»^(٥).

التمهيص: التنقية والتخليص من العيوب^(٦).

الصلة بين الابتلاء والتمهيص:

الابتلاء يقتضي امتحان واختبار ينتهي بنتائج سلبية أو إيجابية، والتمهيص تطهير، أي: إن نتيجته إيجابية دائمًا.

(١) تاج العروس، الزبيدي ١١ / ١٢٥.

(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ٢١٦.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥ / ٣٠٠.

(٤) انظر: الصحاح، الجوهري ٣ / ١٠٥٦.

(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١ / ٣٦٢.

(٦) التحرير والتنوير ٤ / ١٠٤.

الفرق بين الابتلاء والعقوبة

قد يختلط الأمر في التفريق بين العقوبة والابتلاء؛ والناظر إلى آيات الذكر الحكيم يقف على الفرق بينهما؛ فقد قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

قال الواحدي: «فمن صبر على هذه الأشياء استحق الثواب ومن لم يصبر لم يستحق»^(١).

فقد جعل للنجاح في الابتلاء علامة، ألا وهي الصبر والإيمان والاستقامة على المنهج السليم، واشتداد البلاء دليل على شدة الإيمان وقوته، لذلك كان الأنبياء أشد الناس بلاء؛ لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: (الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأئمة)، فالأئمة من الناس، يتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة^(٢).

أما العقوبة فبسبب وقوعها الذنوب

والمعاصي والانحراف عن المنهج، وكلما زادت الذنوب والمعاصي، وكبر حجم الانحراف، اشتدت العقوبة.

قال تعالى: ﴿وَسَأَلْتَهُم عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

وقد يظن العبد أن ابتلاء الله له بالإنعام والإكرام علامة على حب الله له ورضاه عنه، بينما يظن التضيق في الرزق إشارة إلى غضب الله وعدم رضاه عنه.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۖ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

قال السمعاني: «أي: أنا كريم عليه حيث أعطاني هذه النعم»^(٣).

وهذا مفهوم خاطئ؛ فالرضا والغضب منوطان بتصرف الإنسان حال الابتلاء.

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفْكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

واجتياز الابتلاء بنجاح هو طريق للإمامة والتمكين، بينما الفشل فيه فعقوبته الحرمان

(١) الوجيز، ص ١٤٠.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٧٨.

قال محقق المسند: «إسناده حسن».

(٣) تفسير القرآن ٦/ ٢٢١.

من ذلك. قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

فإبراهيم عليه السلام جعل للناس إمامًا؛ لأنه نجح في كل ما ابتلي به وامتنح، بينما الذين يفشلون في ذلك يحرمون هذه الإمامة، ولا ينالون ذلك العهد.

قال الزحيلي: «فجازاه الله تعالى أحسن الجزاء، وقال له: إني جاعلك للناس رسولاً وإماماً تؤمهم في دينهم، ويأتمون بك في هذه الخصال»^(١).

والبلاء والابتلاء كلاهما امتحان واختبار، ويكونان بالسراء والضراء، ويقعان شرعاً وقدرًا، فالتكاليف الشرعية فعلاً كانت أو تركًا، وكذلك مقادير الخير والشر، كل ذلك مما يمتحن به العبد، وإن كان استعمال الابتلاء في الشر والضر والأمر الشاقة أغلب.

قال الخازن: «الابتلاء يكون في الخير وفي الشر، وإذا أطلق كان في الشر غالبًا، فإذا أريد به الخير قيد به»^(٢).

وقال ابن عاشور: «لما كان الاختبار يوجب الضجر والتعب سمي بلاء، كأنه

يخلق النفس، ثم شاع في اختبار الشر؛ لأنه أكثر إغنائًا للنفس»^(٣).

معالم العقوبة:

المعلم الأول: لا عقوبة من الله عز وجل إلا بذنب.

والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصر.

المعلم الثاني: العقوبة تنقسم إلى قسمين من حيث الصورة:

القسم الأول: عقوبة ظاهرة حسية، وهي ما كانت في قالب ضراء.

القسم الثاني: عقوبة خفية معنوية، وهي ما كانت في قالب سراء في الحال، وإن كان مآلها الضراء لا محالة باعتبار العاقبة، فكما أن العقوبة الظاهرة تكون بالضراء، فقد تكون بقالب سراء، ومن ذلك عقوبة المعرض عن ربه بإقبال الدنيا عليه؛ استدراجًا له وعقوبته بوحشة في قلبه حين يذنب، وعقوبته بإتباع السيئة بسيئة أخرى.

المعلم الثالث: العقوبة تنقسم إلى قسمين من حيث المقاصد:

القسم الأول: عقوبة مخففة، وتسمى الكفارة، وهي العقوبة الناتجة عن محبة الله للعبد وإحسانه إليه من حيث العاقبة، وذلك كالعقوبات التي تكون كفارة للمؤمن كقوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٩٣].

(٣) التحرير والتنوير ١/ ٤٩٣.

(١) التفسير المنير ١/ ٣٠٣.

(٢) لباب التأويل ٢/ ٤١٨.

[١٢٣].

وقوله: ﴿وَمَا أَصْبَحَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

والمقصود بالمصيبة هنا هي المصائب الجارية مجرى العقوبة والجزاء على الذنب لا مطلق المصيبة، ومن العقوبة المخففة: العقوبة التي يراد منها التنبيه والتذكير لعل المسيء يتوب، وهذه عامة للمسلم بإطلاق ولغير المسلم في الحياة الدنيا.

ومنها قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

القسم الثاني: العقوبة المغلظة، وهذه تكون ناتجة عن غضب الله تعالى على عبده ومقتة وبغضه له، وهذه تكون لإتلاف العبد ومحقه وقطع دابره وهذه للكفار والمنافقين والمشركين^(١).

وخلاصة الفرق بين الابتلاء والعقوبة كما جاء في فقه الابتلاء:

١. من حيث زمن الوقوع، فإن الابتلاء يكون في الدنيا، وأما العقاب فإنه يكون في الدنيا والبرزخ والآخرة.
٢. من حيث السبب والباعث، فإن الابتلاء يكون لاختبار حال الإنسان، كما في

قوله سبحانه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

٣. أو يكون تكفير السيئات، أما العقاب فلا يكون إلا جزاء على الذنب.

٤. الابتلاء عام للمكلفين من الجن والإنس، فهو يقع على الأنبياء والصالحين، كما في الحديث: (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأئمة فالأهل). أما العقاب فإنه خاص؛ إذ يقع على أهل الذنوب والمعاصي فقط^(٢). وقد يقع العقاب على الإنس والجن، والصالحين والعصاة، كما حصل في غزاة أحد، وغزوة حنين.

(١) انظر: فقه الابتلاء وأقدار الله المؤلمة، البدراني ص ١٨.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٢٠.

البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة (٢).

والابتلاء يكون لاختبار صدق الإيمان، أو للتمييز بين من يثبت، ومن لا يثبت على إيمانه، وقد يكون لزيادة الإيمان.

أولاً: اختبار صدق الإيمان:

قال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

فلا بد من اختبار صدق الإيمان، فليس كل من ادعى الإيمان بلسان، آمن قلبه، فهناك المنافقون الذين يظنون الكفر، ويظهرون الإسلام.

قال الشنقيطي: «إن الناس لا يتركون دون فتنة، أي: ابتلاء واختبار، لأجل قولهم: آمنا، بل إذا قالوا: آمنا فتنوا، أي: امتحنوا واختبروا بأنواع الابتلاء» (٣).

الابتلاء سنة إلهية

الابتلاء سنة إلهية لا بد منها، والله عز وجل يكشف الحقائق عبر هذه الابتلاءات. فالابتلاء يكون من الله وحده لعباده المؤمنين، تمحيصاً لإيمانهم، واختباراً لقدرتهم على الثبات على هذا الدين الحنيف.

قال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤] وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٥﴾ [العنكبوت: ٢٥-٢٦].

قال المراغي: «ولقد اخترنا أتباع الأنبياء من الأمم السالفة وأصبناهم بضروب من البأساء والضراء فصبروا وعضوا على دينهم بالنواجذ» (١).

وهذه السنة الإلهية لا ينجو منها أحد، بل ربما زاد بعض البشر على بعض في البلاء، إذ يرتبط الابتلاء بقيم متعددة؛ كالصبر واليقين والثبات والتفاؤل والتوكل والثقة بالله، لذلك يلحق الإنسان من البلاء بقدر تحمله وتغلغل تلك القيم في قلبه.

وهو ما يوحى به قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣ / ٧٨.

قال محقق المسند: اسناده حسن.

(٣) أضواء البيان ٦ / ١٥٥.

(١) تفسير المراغي ٢٠ / ١١٢.

ثانيًا: ابتلاء الثبات على الإيمان:

قال تعالى: ﴿هَٰذَا لَكُمْ آيَاتُ الْمُؤْمِنِينَ وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١].
زلزال ليبيان الثبات، أو عدمه.

قال الرازي: ﴿وَزَلْزَلُوا﴾ أي: أزعجوا وحركوا، فمن ثبت منهم كان من الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وبذكر الله مطمئن مرة أخرى، وهم المؤمنون حقًا^(١).

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزَلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

زلزلوا ليظهر من يثبت، ومن ينقلب على عقبيه.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

وقال أيضًا: ﴿لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

قال ابن عاشور: «استثناف لإيقاظ المؤمنين إلى ما يعترض أهل الحق وأنصار

الرسول من البلوى، وتنبية لهم على أنهم إن كانوا ممن توهنهم الهزيمة فليسوا أحرىء بنصر الحق»^(٢).
وهذا كله ابتلاء لاختبار الثبات على الإيمان.

ثالثًا: ابتلاء زيادة الإيمان:

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصفات: ١٠٦].

وهو بلاء ليس لأي أحد، ومثاله: ابتلاء إبراهيم لمنصب الخلعة بذبح ولده.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُني إِيَّيْ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَكُونُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [١٠٢] ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [١٠٣] ﴿وَتَذَرَيْنَاهُ أَنْ يَتَّخِذَ إِسْمَٰهُمُ﴾ [١٠٤] ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٠٥] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصفات: ١٠٢-١٠٦].

قال القاسمي: «إن هذا لهو البلاء المبين، أي: الاختيار البين الذي يتميز ويتفاضل فيه المخلص من غيره. إشارة إلى أن هذا الأمر كان ابتلاء وامتحانًا لإبراهيم في صدق الخلعة لله، وتضحية أعز عزيز لديه، وأحب محبوب عنده، لأمر ربه تعالى»^(٣).

(٢) التحرير والتنوير ٤ / ١٨٩.

(٣) انظر: محاسن التأويل ٨ / ٢١٩.

المال أو الأولاد أو الصحة، وما إلى ذلك من نعم الله التي لا تعد ولا تحصى، إنما هو اختبار وامتحان من الله، فالمنعم جل وعلا يستودع هذه النعم عند أصحابها ليرى كيف يتصرفون فيها، أيتكبرون ويفسدون في الأرض، مثل ما فعل فرعون، أم ييخلون ويمنعون ما أمر الله به، مثل ما فعل قارون، أم يسخرون علمهم الذي أنعم الله به عليهم في الرياء والاستعلاء على الخلق، ولا يتقون الله فيه، مثل ما فعل بلعام بن باعوراء.

يمتحن الله عبده بالمصائب، أو بالخيرات من مال وجمال وقوة وسلطان؛ فإن كان امتحانه بالشر فعليه أن يقابل ذلك بالصبر، وإذا كان ابتلاؤه بالخير فعليه أن يقابل هذا بالشكر. فلقد أقسم سبحانه أنه سيبلو عباده بالمكاره والمصائب؛ ليظهر صبرهم واحتسابهم ورضاهم بما قدره عليهم.

فقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وهناك نماذج قرآنية لذلك الابتلاء، منها:

أنواع الابتلاء

يبتلي الله العبد بنوعين من الابتلاء: أولاهما: الابتلاء بالخير والشر، وثانيهما: الابتلاء بالأمر والنهي؛ وفيما يلي تفصيل ذلك.

أولاً: الابتلاء بالخير والشر:

الابتلاء يكون بالخير والشر، بالسراء والضراء، بالسعادة والشقاء، بالراحة والرفاهية والكد والتعب، فيبتلي الإنسان بما يسره وبما يسوؤه، ولا يكون بالضراء فقط، فلا بد أن يكون صابراً على الضراء، شاكراً على السراء.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۚ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۚ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنعام: ٤٢].

وقال أيضاً: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ أَصْلَاحٌ وَمِنْهُمْ دُونُ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: ١٦٨].

الابتلاء بالخير أشد وأثقل من الابتلاء بالشر؛ فالابتلاء بالشر معلوم ومشهور، أما الآخر فلا يظنه كثير من الناس ابتلاء، فهم لا يعلمون أن ما أنعم الله به عليهم من بركة في

١. إبراهيم عليه السلام:

لقد ابتلي إبراهيم عليه السلام في أبيه الذي كان يصنع أصناماً تعبد من دون الله، وابتلي في جسمه فقذف في النار.

قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء: ٦٨-٦٩].

وابتلي إلى ذلك بابتلاء من نوع خاص، وهو تحميله أمانة الإمامة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ١٢٤﴾ [البقرة: ١٢٤].

وابتلي في ولده و فلذة كبده فأمر بذبحه. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَتَّبِعُكَ أَهْلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ١٠٣﴾ وَتَدَيَّنَتْ أَنْ يُتْلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١٠٥﴾ إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ ١٠٦﴾ [الصافات: ١٠٢-١٠٦].

فلقد ابتلى الله إبراهيم ابتلاءً شديداً، أمره بأن يذبح ولده الحبيب، «وكان ذلك الولد عزيزاً على أبيه؛ لأنه فلذة كبده وإنسان عينه، وقد جاء من الله بعد الدعاء وبشارة الملائكة به فكان له مزيد فضل، وعلو كعب، ومع

ذلك فقد صدق إبراهيم لأمر ربه»^(١).

وقد كان هذا الابتلاء ابتلاءً بالشر والمكروه.

قال القرطبي: «قال أبو زيد: هذا من البلاء الذي نزل به في أن يذبح ابنه، قال: وهذا من البلاء المكروه»^(٢).

٢. قارون:

وفي هذا النموذج كان الابتلاء بالخير؛ فقد أتى الله قارون المال الكثير امتحاناً وابتلاءً، ولكنه فشل في ذلك الاختبار، فكان من الخاسرين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ الْكُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَىٰ الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ٧٦﴾ وَابْتَغَ فِيمَا ءَاتَاهُ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُئُوبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ ٧٨﴾ [القصص: ٧٦-٧٨].

لقد نصحه قومه بأن يستعمل المال - الذي ابتلاه الله به - في ما يرضي الله. قال الزحيلي: «استعمل ما وهبك الله

(١) التفسير الواضح، محمد حجازي ٣ / ٢١٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ١٠٦.

فكان عقابهم أنهم يتيهون في الأرض أربعين سنة؛ جزاءً وفاً^(٢)؛ فلقد كان ابتلاء بني إسرائيل واختبارهم بأن أمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة، ولكنهم فشلوا في ذلك الابتلاء والاختبار فكانت العقوبة أن تاهوا أربعين سنة.

٤. أيوب عليه السلام:

لقد ابتلي أيوب عليه السلام بالمكروه ابتلاءً عظيمًا بماله، وأولاده، وجسده، وقد صبر وحمد الله ونجح في الابتلاء، وقد كان ابتلاؤه لرفع درجته عند الله.

قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَمُنَازَاتٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

إن قصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء. والنصوص القرآنية تشير إلى مجملها دون تفصيل، وهي في هذا الموضع تعرض دعاء أيوب واستجابة الله للدعاء؛ لأن السياق سياق رحمة الله بأنبيائه، ورعايته لهم في الابتلاء. سواء كان الابتلاء بتكذيب قومهم لهم وإيذائهم، كما في قصص إبراهيم ولوط ونوح، أو بالنعمة في قصة داود وسليمان، أو بالضرر كما في حال أيوب.

من هذا المال الجزيل، والنعمة الطائلة، في طاعة ربك، والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة، فإن الدنيا مزرعة الآخرة^(١).

ولكنه فشل في الاختبار، فكانت النتيجة قول الله تعالى: ﴿فَسَقْنَا بِهِ وَيَدَارِيهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٨١].

٣. بنو إسرائيل:

جاء الاختبار الأكبر لبني إسرائيل، وذلك عندما قال لهم موسى: يا قوم، ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا تراجعوا ولا تترددوا على أعقابكم فتصبحوا من الخاسرين.

قال تعالى: ﴿يَقُولُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [المائدة: ٦١].

فأرسلوا أناسًا منهم ليستطلعوا الأمر، فوجدوا فيها قومًا أقوياء جبارين، فخافوا أن يدخلوا الأرض المقدسة، وقالوا لموسى: لن ندخل يا موسى حتى يخرجوا منها، فلتذهب أنت مع ربك فقاتلنا إننا هنا قاعدون.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنَرُّكَ فِيهَا بَاطِلًا كَذِبًا ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤].

(٢) انظر: تفسير المراغي ٦ / ٨٨.

(١) التفسير المنير ٢٠ / ١٦٠.

البلاء إشارة لها مغزاها؛ فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء، وتلك تكاليف العبادة وتكاليف العقيدة وتكاليف الإيمان^(١).

[انظر: الفتنة: الفتن والمحن بالشر والخير]

ثانيًا: الابتلاء بالأمر والنهي:

الابتلاء بالأمر والنهي أمر عظيم؛ إذ به تعرف الأحكام حلالها وحرامها، وقد بدأت كتب الفقه بها.

يقول السرخسي: «فأحق ما يبدأ به في البيان الأمر والنهي؛ لأن معظم الابتلاء بهما وبمعرفتهما تتم معرفة الأحكام، ويتميز الحلال من الحرام»^(٢).

لقد بين الله للناس أن خلقهم وخلق السماوات والأرض وخلق الموت والحياة وكل الأمور التي قدرها لهم لابتلائهم أيهم أحسن عملًا.

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

يقول الطبري: «ليختبركم فينظر أيكم له أيها الناس أطوع، وإلى طلب رضاه أسرع»^(٣).

والابتلاء بالأمر والنهي يسمى الابتلاء التشريعي، حيث يتعلق بأفعال المكلفين من حيث الحلال والحرام، والالتزام بما أمر الله

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٩٢.

(٢) أصول السرخسي ١/ ١١.

(٣) جامع البيان ٢٣/ ٥٠٥.

وأيوب هنا في دعائه لا يزيد على وصف حاله: ﴿إِنِّي مَسِيئٌ الضَّعِيفُ﴾ ووصف ربه بصفته: ﴿وَأَنْتَ أَزْهَمُ الرَّجِيمِينَ﴾.

ثم لا يدعو بتغيير حاله، صبرًا على بلائه، ولا يقترح شيئًا على ربه، تأدبًا معه وتوقيرًا؛ فهو نموذج للعبد الصابر لا يضيق صدره بالبلاء، ولا يتململ من الضر الذي تضرب به الأمثال في جميع العصور. بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه، فيدع الأمر كله إليه، اطمئنًا إلى علمه بالحال وغناه عن السؤال. وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة، وكانت الرحمة، وكانت نهاية الابتلاء. ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضِرٍّ، وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾.

رفع عنه الضر في بدنه فإذا هو معافي صحيح، ورفع عنه الضر في أهله فعوضه عمن فقد منهم، ورزقه مثلهم، وقيل هم أبنائه فوهب الله له مثلهم، أو أنه وهب له أبناء وأحفادًا.

﴿رَحْمَةً مِنَّا عَيْنًا﴾؛ فكل نعمة فهي رحمة من عند الله ومنة، ﴿وَذِكْرَى لِّلْعَالَمِينَ﴾ تذكرهم بالله وببلائه، ورحمته في البلاء ويعد البلاء، وإن في بلاء أيوب لمثلاً للبشرية كلها وإن في صبر أيوب لعبرة للبشرية كلها. وإنه لأفق للصبر والأدب وحسن العاقبة تتطلع إليه الأبصار، والإشارة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ بمناسبة

يصطادون فيه السمك»^(١).

قال ابن كثير: «واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة»^(٢).

وقال أيضاً: ﴿وَلَسَبَلُواكُمْ حَتَّى نَمَلَّ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ﴾^(٣) [محمد: ٣١].

قال القشيري: «يخبر عما ألزمهم من مراعاة الحدود، وما حصل منهم من نقض العهود، وعما ألزمهم من التكليف، ولقاهم به من صنوف التعريف»^(٤).

ومنه ما يكون ابتلاءات ابتلى المؤمنون بها أو الرسل لا عقوبة لهم، ولكن ليتم التشريع بها، مثل: ابتلاء عائشة رضي الله عنها بحادثة الإفك، وابتلاء النبي صلى الله عليه وسلم في زوجته وانقطاع الوحي عنه، ف جاء لنا من رحم هذا الابتلاء آيات وتشريعات وأحكام وعبر، ما لا يأتي إلا من مثل هذا الابتلاء.

من عدمه؛ وذلك مثل ابتلاء الله لإبراهيم عليه السلام بالإمامة.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١٣) [البقرة: ١٢٤].

وابتلاءه بذبح ابنه، ولما استجاب لأمر ربه، وتهيأ لتنفيذ الذبح، سمى الله ذلك التكليف البلاء المبين.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُني إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَازِلِ آيَةً أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَكْتَبُ أَفْعَلَ مَا تُومِرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(١٢) ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾^(١٣) ﴿وَنَدَّيْنَاهُ أَنْ يَكْفُرْ بِهِمُ﴾^(١٤) ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(١٥) ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَّ الْبَتُّوُا الْعَيْنُ﴾^(١٦) [الصافات: ١٠٢-١٠٦].

ومن الابتلاء بالتكليف ما حدث لأصحاب القرية من بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَسَلَّطْنَاهُمْ عَلَيْكَ قَرْيَةً الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(١٣) [الأعراف: ١٦٣].

قال الطبري: «كان اعتداؤهم في السبت: أن الله كان حرم عليهم السبت، فكانوا

(١) جامع البيان ١٣ / ١٨٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٤٩٣.

(٣) لطائف الإشارات ١ / ٥٨٠.

الابتلاء في الدعوة إلى الله

لابد للناس عامة وللمؤمنين خاصة، ولحملة الدعوة على وجه أخص، إذا أرادوا أن ينجحوا في دعوتهم من الصبر على الابتلاءات والمتاعب، والتي تتمثل في أذى الناس بالقول والفعل، فليس هناك شيء أشد على نفس الرجل المخلص في دعوته، البريء من الهوى، المحب الخير للناس من أن يمحض لهم النصيح فيتهموه بما ليس فيه، وأن يدعوهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة فيردوه بالقوة، ويعظمهم بالحسنى، فيستقبلوه بالسوء، ويجادلهم بالتي هي أحسن، فيقاوموه بالتي هي أخشن، ويدلهم على الخير فيقذفوه بالشر.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، فكثيراً ما يمتد الطغيان إلى الأموال فينهبا، وإلى الأبدان فيعذبها، وإلى الحريات فيسلبها، بل يتعدى الأمر إلى الأنفس فيقتلها، وقد أقسم الله تعالى في القرآن على وقوعه على الداعين إلى الله حيث خاطبهم بذلك ليوطنوا أنفسهم على الصبر الجميل.

قال تعالى: ﴿لَتُكَلِّبُنَا فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أَتَوْا أَلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيْرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل

عمران: ١٨٦].

ويكون ابتلاء الدعاة إلى الله بصور عدة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً: الاستهزاء والسخرية:

إن أسلوب الاستهزاء والسخرية بالدعاة والنيل منهم، وتحطيمهم أسلوب قديم، سلكه جميع الطواغيت مع الرسل وأتباعهم، قال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الحجر: ١١].

وأسلوب السخرية والاستهزاء بالدعاة إلى الله، لم يتوقف لحظة من اللحظات في الصراع القائم بين أولياء الرحمن، وأولياء الشيطان عبر التاريخ.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ يَنْخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهْذًا الَّذِي يَذْكُرُ الْإِلَهَتَكُمْ وَمَنْ يَذْكُرِ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَنْخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهْذًا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١].

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه لما بين مبالغة المشركين في إنكار نبوته، وإيراد الشبهات في ذلك، بين بعد ذلك أنهم إذا رأوا الرسول اتخذوه هزواً، فلم يقتصروا على ترك الإيمان به، بل زادوا عليه بالاستهزاء والاستحقار»^(١).

(١) مفاتيح الغيب ١٢/٧٤.

قال الألوسي: «لم يقتصر قولهم في حق الرسول صلى الله عليه وسلم: هل هذا بشر مثلكم، وفي حق ما ظهر على يده من القرآن الكريم إنه سحر، بل قالوا عن القرآن: إنه تخاليط أحلام»^(٣).

ثالثاً: التعذيب بالضرب والجلد:

حتى يرهب أعداء الله وأولياء الشيطان أولياء الرحمن - كما يتوهمون وتسول لهم أنفسهم - يزمجرون ويزبدون، ويهددون بالويل والثبور، وعظائم الأمور لكل من تسول له نفسه مخالفتهم، والسير على طريق غير طريقهم، قال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْبُتْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

«أي: المرجومين بالحجارة، وهو تواعد بالقتل»^(٤).

وقال أيضاً: ﴿قَالُوا يَسْعَيْتُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا وَمَا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

ولقد ناقش إبراهيم عليه السلام أباه آزر نقاشاً موضوعياً علمياً يدعوه فيه إلى عبادة الله وتوحيده، ويقدم له الحجة تلو الحجة، والدليل مع الدليل بأسلوب رفيق مع الأدب الجم والاحترام للأبوة، فيرد عليه الأب:

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

قال الجزائري: «وتفيد الآية أن الاستهزاء والسخرية بالرسول والدعاة سنة بشرية لا تكاد تتخلف؛ ولذا وجب على الرسل والدعاة الصبر على ذلك، وفي الآية بيان عاقبة التكذيب والاستهزاء، وهو هلاك المكذبين المستهزين»^(١).

ثانياً: الاتهام بالكذب:

من صور الحملات الإعلامية المسعورة التي يشنها الأعداء ضد الرسل والدعاة، اتهامهم بالكذب والافتراء والاختلاق، والتشنيع عليهم؛ لتشويه صورتهم، وإثارة الشكوك حولهم، حتى يفقد الناس ثقتهم بهم، بعدم الإيمان بهم أو اتباعهم، أو الدعوة إلى ما جاءوا به.

قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ أَهْلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ عِتْرَةً لِقَوْمِهِمْ وَمَا هُمْ بِعِتْرَةٍ﴾ [ص: ٤].

فقد كذبوه ورموه بالسحر؛ وقالوا: إن محمداً يفرق بين الوالد وولده فوق تفريقه لقومه وعشيرته^(٢).

وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَقْرَبَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

(٣) روح المعاني، ٩/ ١٠.

(٤) المصدر السابق ٣/ ٤١٣.

(١) أيسر التفاسير ٢/ ٤٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧١٤.

قال الرازي: «فيه اعتدادٌ باقتداره وقهره وما ألفه من تعذيب الناس بأنواع العذاب واستضعاف موسى عليه السلام مع الهزم به»^(٢).

﴿قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْبَةِ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ لَنْ لَمْ تَنْتَهُ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِكًا﴾ [مريم: ٤٦].

رابعاً: التهديد بالقتل والتنكيل:

حين يعجز الطواغيت عن منع الدعاة من الاستمرار في دعوتهم للناس، وعن صدهم عن دينهم وعن دعوتهم، بالرغم من كل الإغراءات التي يقدمونها لهم ولأتباعهم، لا يبقى أمامهم سوى التصفية الجسدية، والتنكيل بالمخلصين المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وهكذا عندما يعجز الطواغيت عن المعارضة بالحجة يلجؤون إلى قتل خصمهم، ولكنه كان يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالعقوبة^(١)، وفي سورة طه يقف الطاغية فرعون يهدد السحرة الذين آمنوا برب موسى وهارون.

قال تعالى: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعْ بِأَيْدِيكُمْ وَأُتْلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ لَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعٍ أَلْخَلَّيْ وَلْنَعْلَمَنَّ أَنِنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١].

(٢) مفاتيح الغيب ٢٢ / ٧٧.

(١) انظر: مدارك التنزيل ٣ / ٢٠٧.

ومما يكون لتكفير السيئات ما جاء في الحديث المتفق على صحته عند الشيخين أن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله: (ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها)^(٣).

قال الإمام المناوي رحمه الله شارحاً هذا الحديث في فيض القدير: (ما من مصيبة) أي: نازلة، وأصلها الرمي بالسهم ثم استعيرت لما ذكر (إلا كفر الله بها عنه) ذنبه أي: محي خطيئاته بمقابلتها^(٤).

قال الإمام الغزالي رحمه الله: قال عيسى عليه السلام: لا يكون عالمًا من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض عليه لما يرجوه من ذلك من كفارة خطاياهم^(٥).

ويعاقب المؤمن بالبلاء على بعض الذنوب فتكون في حقه كفارة وعقوبة مخففة ظاهرها القسوة وباطنها الرحمة، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما يصيب المسلم من هم، ولا حزن، ولا وصب، ولا نصب، ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياهم)^(٦).

قال الألباني: صحيح.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرض، باب كفارة المرض، رقم ٥٦٤٠، ٧/ ١١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، رقم ٢٥٧٢، ٤/ ١٩٩٢.

(٤) انظر: فيض القدير ٥/ ٥٠١.

(٥) فيض القدير ٤/ ٤٦٨.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرض،

الحكمة من الابتلاء

للابتلاء فوائد عظيمة وحكم جلييلة، يمن بها الله على من أحب من عباده، ومن هذه الحكم: تكفير السيئات ورفع الدرجات، والتمحيص والتنقية والتهيؤ لحمل أعباء الدعوة.

أولاً: تكفير السيئات ورفع الدرجات:

قد ينزل البلاء على العباد رفعاً للدرجات، أو وضعاً للأصوار و تكفيراً للخطايا والسيئات؛ فمن ما يكون لرفع درجات العباد، ويراد لهم الخير به ما رواه البخاري في صحيحه أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: (من يرد الله به خيراً يصب منه)^(١).

أي: يتتلى بالمصائب والمحن ليرفع درجاته ويزيد في حسناته على ما يكون من صبره واحتسابه.

ومن ذلك أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام: (إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده، ثم صبره حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له منه)^(٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرض، باب ما جاء في المرض رقم ١١٥، ٧/ ٥٦٤٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٢٣٣٨، ٣٧/ ٢٩.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْمُرَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

قال الرازي: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة بمجرد تصديقكم الرسول قبل أن يتليكم الله بالجهاد وتشديد المحنة والله أعلم»^(٣). فكلما صلب إيمان المرء وقوي يقينه؛ اشتد بلاؤه، فمن رضي؛ فله الرضى من الله عز وجل.

ثانيًا: التمحيص:

المحص: التخليص والتنقية والاختبار والابتلاء، ومنه محص الشيء، يحصه محصًا، أي: يخلصه مما يشوبه^(٤)؛ «فالتمحيص ههنا كالتركية والتطهير»^(٥). سنة التمحيص نتيجة طبيعية لسنة الابتلاء؛ فالمؤمن من جهة يتعرض للمحنة، فيصقل معدنه من أثرها، وينضج بها كما ينضج الطعام بالنار، والمنافق من جهة ثانية لا يستطيع الصمود أمام الفتنة، فتخور قواه، وتنحل عراه، وينكص على عقبيه، ولهذا جعل الله تعالى التمحيص معبرًا لتنقية الصف المؤمنين من أدياء الإيمان، فيقع به التمييز بين الدر الثمين والخرز الخسيس.

كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ

وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: (لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في جسده أو في ماله أو في ولده حتى يلقي الله سبحانه وما عليه خطيئة)^(١).

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

قال الزحيلي: «والقصد من الابتلاء رفع الدرجات؛ لأن الأنبياء معصومون عن الذنوب والآثام، ويكون حصول المصيبة من باب الامتحان في التكليف، لا من باب العقوبة»^(٢).

والمؤمن ينظر إلى الابتلاء أنه نعمة ورحمة من الله على عباده، يتعهدهم بالابتلاء المرة بعد المرة؛ لينقيهم، ويظهرهم، ويذهب عنهم رجز الشيطان، ويربط على قلوبهم، ويثبت به الأقدام، وكذلك ينظر إليه أنه دليل رضى ومحبة من الله لعباده؛ فإن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه، لا لحبه لا ابتلاء عبده بل لما في هذا الابتلاء من عواقب حميدة قد يجهلها العبد نفسه، فدخل الجنة في الغالب يسبقه الابتلاء.

باب كفارة المرض، رقم ٥٦٤٠ / ٧ / ١١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، رقم ٢٥٧٢، ٤ / ١٩٩٢.

- (١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب كفارة المريض، رقم ٤٩٤، ص ١٧٤.
- (٢) التفسير المنير ٢٥ / ٧٦.

- (٣) مفاتيح الغيب ٩ / ٣٧٦.
- (٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩٠ / ٤.
- (٥) المفردات، الراغب ص ٦٧١.

مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ؕ أَشْكُرْ
أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ؕ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ
رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ [النمل: ٤٠].

وقال أيضًا: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوَكُمُ
اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ
اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ؕ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ [المائدة: ٩٤].

فالمؤمن يتلى في هذا الباب بأن يكون
الحرام بين يديه سهل ميسور تناله يده ليعلم
الله هل يخافه أم لا؟

[انظر: الفتنة: الحكمة من الفتنة وسبل النجاة
منها]

الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثُ مِنَ
الطَّيِّبِ ﴿[آل عمران: ١٧٩].

«أي: يختبركم بما جرى عليكم، وليميز
الخيث من الطيب، ويظهر أمر المؤمن
والمنافق للناس في الأقوال والأفعال»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي
صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وعلى ضوء سنة التمهيص تتحقق
سنة أخرى، وهي سنة التمكن، إذ يمكن
الله عز وجل للمؤمنين في الأرض بعد
أن يثبتوا جدارتهم واستحقاقهم للنصر
بلجوئهم إليه وحده في وقت المحنة،
وتجردهم له وتطلعهم إليه في زمن الشدة،
مستيقنين من نزول النصر بعد الأخذ بكافة
الأسباب المأمور بها شرعاً من صبر وتقوى
وإعداد^(٢).

وهناك الكثير من الآيات الدالة
على الاختبار والتمهيص، قال تعالى:
﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْفَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ
مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ
﴿١٥٥﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقال أيضًا: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ
أَنَا مَائِكَ بِيءَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٤٦.

(٢) انظر: منهج النبي صلى الله عليه وسلم في
السيرة الصحيحة، محمد محزون ص ٣٩.

المعينات على اجتياز الابتلاء

لا بد للعبد أن يكون له زادٌ عظيمٌ يستعين به في مواجهة الابتلاءات والمحن؛ حتى يتمكن من النجاح، والاستفادة من ذلك الابتلاء، ومن أهم المعينات على ذلك:

أولاً: الاستعانة بالله:

إن الاستعانة بالله تعالى من أجل العبادات وأفضلها، والتي أمر الله بها عباده للحصول على عطائه وكرمه، قال الله تعالى ذاكراً عبده موسى عندما نصّح قومه بالاستعانة بالله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فأمرهم بالاستعانة بالله عندما ابتلاهم بعدوان فرعون وملئه تسلية لهم وتسكيناً. قال الزمخشري: «قال موسى لقومه استعينوا بالله قال لهم ذلك- حين قال فرعون: سنقتل أبناءهم فجزعوا منه وتضجرُوا- يسكنهم ويسلبهم، ويعدهم النصر عليهم، ويذكر لهم ما وعد الله بني إسرائيل من إهلاك القبط وتوريثهم أرضهم وديارهم»^(١).

وقال الماتريدي: «استعينوا بالله بالنصر لكم والظفر، واصبروا على أذاهم والبلاء»^(٢).

ولقد قرأ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عند خروجه من بيته مهاجراً قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩].

مستعيناً به على ابتلائه بكيد المشركين؛ فأخرجه الله من بين أيديهم سالماً محفوظاً.

ولقد نجح يعقوب في ابتلائه بفقده فلذة كبده وقرة عينه يوسف عليه السلام، حيث استعان بالله على ذلك، وتجلّى ذلك في قوله: ﴿وَجَاءَهُ عَلَى قَيْصِيهِ بِذِرْكَبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

قال الزمخشري: «والله المستعان» قال أي: أستعينه على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف، والصبر على الرزء فيه»^(٣).

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ عطف على جملة ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فتكون محتملة للمعنيين المذكورين من إنشاء الاستعانة، أو الإخبار بحصول استعانتة بالله على تحمل الصبر على ذلك»^(٤).

ثانياً: التقوى:

إن من أكثر المعينات على الابتلاء، أن يتحلّى المبتلى بالتقوى.

(٣) الكشف ٢ / ٤٥٢.

(٤) التحرير والتنوير ١٢ / ٢٤٠.

(١) الكشف ٢ / ١٤٣.

(٢) تأويلات أهل السنة ٤ / ٥٤١.

إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرًا له^(٤).

عندما ابتلى الله المؤمنين بقتال المشركين كافة أمرهم بملازمة التقوى التي تعينهم على اجتياز ذلك الابتلاء، ووعدهم جراء ذلك بأن يضمن لهم النجاح في الابتلاء والنصر في المعركة، قال تعالى: ﴿وَقَنِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَنِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٥). [التوبة: ٣٦].

قال الرازي: «تأويله أنه ضامن لهم النصر»^(٥).

وقال السعدي: «بعونه ونصره وتأيدته، فلتحرصوا على استعمال تقوى الله في سركم وعلنكم والقيام بطاعته، خصوصًا عند قتال الكفار، فإنه في هذه الحال، ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين»^(٦).

ثالثًا: الصبر:

الصبر خلق عظيم يعين على دفع البلاء واجتياز الابتلاء بإذن الله تعالى، «فما على العبد إلا أن يستعين بربه أن يعينه، ويجبر مصيئته».

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب أمر المؤمن كله خير، رقم ٧٦١٠، ٨/ ٢٢٧.

(٥) مفاتيح الغيب ١٦ / ٤٤.

(٦) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٣٦.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

وقال أيضًا: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

قال القرطبي: «قال الكلبي: ومن يتق الله بالصبر عند المصيبة. يجعل له مخرجًا من النار إلى الجنة. وقال الحسن: مخرجًا مما نهى الله عنه. وقال أبو العالية: مخرجًا من كل شدة»^(١).

وقال سيد قطب: «مخرجًا من الضيق في الدنيا والآخرة، ورزقًا من حيث لا يقدر ولا ينتظر. وهو تقرير عام، وحقيقة دائمة»^(٢).

لقد أكد الله هذه الحقيقة في ثلاث آيات متتالية لترسخ في النفوس.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

قال السعدي: «أي: يتقي فعل ما حرم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامثالها»^(٣).

قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه صهيب: (عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن،

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ١٥٩.

(٢) في ظلال القرآن ٦ / ٣٦٠١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٤.

قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ومن كانت معية الله معه فهو حقيق أن يتحمل ويصبر على الأذى^(١)، ومن كانت معية الله معه يعينه على اجتياز الابتلاء؛ بل وينصره ولا يخذله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

قال الواحدي: «أي: إني معكم أنصركم ولا أخذلكم»^(٢).

وروى مسلم عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يصيب المؤمن من مصيبة، حتى الشوكة، إلا قص بها من خطاياها، أو كفر بها من خطاياها)^(٣).

يجتمع للمؤمن عند الضراء، ثلاث نعم: نعمة تكفير السيئات، ونعمة حصول مرتبة الصبر التي هي أعلى من ذلك، ونعمة سهولة الضراء عليه، لأنه متى عرف حصول الأجر والثواب، والتمرن على الصبر، هانت عليه

وطأة المصيبة، وخف عليه حملها^(٤).
رابعاً: الاحتساب:

الاحتساب هو طلب الأجر من الله تعالى بالصبر على البلاء مطمئنة نفس المحتسب غير كارهة لما نزل بها من البلاء^(٥)، وهو من المعينات للعبد على تحمل الابتلاء، ويكون على ثلاثة أنواع:

١. احتساب الأجر من الله تعالى عند الصبر على المكاره.

وخاصة فقد الأبناء إذا كانوا كباراً، ومثاله: قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [١٣٠] أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ [١٣١] [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

٢. احتساب الأجر من الله تعالى عند عمل الطاعات.

كما في صوم رمضان إيماناً واحتساباً، وكذا في سائر الطاعات، وقد وردت آيات كثيرة بهذا المعنى منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي

(١) عقيدة المسلم، سعيد القحطاني، ٢ / ٩٢٠.

(٢) الوجيز ص ١٣٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه، رقم ٦٦٥٨، ١٥ / ٨.

(٤) انظر: التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، عبد الرحمن آل سعدي، ص ٩٧.

(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢ / ٦٠، تاج العروس، الزبيدي ٢ / ٢٦٧.

أَلْقَوْا إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُونَ كَمَا تَأْمُونُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ [النساء: ١٠٤].

قال الزمخشري: «فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم، مع أنكم أولى منهم بالصبر؛ لأنكم ترجون من الله ما لا يرجون من إظهار دينكم على سائر الأديان، ومن الثواب العظيم في الآخرة»^(٣).

خامساً: الإيمان بالقدر:

ذكر العلماء منافع كثيرة للإيمان بالقدر، وعلى رأسها: الصبر على أقدار الله تعالى وابتلائه، «فالإيمان بالقدر يغرس في نفس المؤمن حقائق الإيمان المتعددة، فهو دائم الاستعانة بالله، يعتمد على الله ويتوكل عليه مع فعل الأسباب، وهو أيضاً دائم الافتقار إلى ربه، يستمد منه العون على الثبات، ويطلب منه المزيد»^(٤).

والمؤمن يعلم علم اليقين أن الله تعالى لا يفعل إلا الذي يصلح عباده ولو جهل الإنسان مورده ومصدره؛ فإنه في الإصلاح قطعاً وأنه خير له.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

نَفْسَهُ أَيْتَعَا مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة: (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)^(١).

٣. احتساب الله ناصراً ومعيناً للعبد عند تعرضه لأنواع الابتلاء من منع عطاء أو خوف وقوع ضرر.

ومعنى الاحتساب في هذا النوع الاكتفاء بالمولى عز وجل ناصراً ومعيناً، والرضا بما قسمه للعبد إن قليلاً أو كثيراً^(٢).

ومثاله: قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

يتعرض الإنسان لأنواع من الابتلاءات والأمر التي تكرهها نفوسهم، ولا فرق في ذلك بين مؤمن وكافر، إلا من جهة احتساب الأجر بالنسبة للمؤمنين.

فالمسلم يمرض وكذا الكافر، ويموت أحباؤه وأقرباؤه، وكذا الكافر؛ لكن ثمة فرقاً مهماً بينهما؛ ألا وهو ما يرجوه المؤمن من الأجر إن هو صبر واحتسب ورضي.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي آيَاتِهِ﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صام رمضان إيماناً واحتساباً، رقم ١٩٠١، ٢٦/٣.

(٢) انظر: نضرة النعيم ٢/ ٥٦.

(٣) الكشف ١/ ٥٦١.

(٤) أركان الإيمان، علي بن نايف الشحود، ص ١٤٧.

وَأَنْتُمْ لَا تَقْلُمُونَ ﴿٣٦﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال أيضًا: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

فالمؤمن يؤمن بذلك كله ويسلم الأمر إلى الله.

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

قال الواحدي: «قال علقمة: ومن يؤمن بالله في المصيبة، أي: يعلم أنها من الله يهد قلبه للاسترجاع والتسليم لأمر الله»^(١).

الإيمان بالقضاء السابق والتقدير الماضي يعين العبد على أن ترضى نفسه بما يصيبه فيصبر على المصائب، ففي المصائب الشرعية يجب الاستغفار، وفي المصائب الكونية يجب الصبر^(٢).

موضوعات ذات صلة:

الأذى، الاستهزاء، الثبات، الضر، الفتنة، المرض، النعم

١

(١) تفسير القرآن ٥ / ٤٥٢.

(٢) شرح الرسالة التدمرية، محمد بن عبد الرحمن الخميس، ص ٤٥٢.